

سلطة القراءة في الأدبية النصية و قارئها

الباحثة: نعاس نادية

جامعة سيدني بلباس

انصبت مجموعة من الأبحاث في اللسانيات و السيميوطيقا و نظرية الأدب بحثاً منهجياً حول مظاهر فعل القراءة ، كلها من عملية القراءة إلى مشكلات التلقي و التأويل .

يدل لفظ القراءة في النصوص القديمة على معان متنوعة منها: الخبرة (الحنكة ، التجربة) ، الخير ، العلم (الرمز ، العلامة ، الإشارة ، الراية ، الشارة) ، المعرفة (عرفان ، الدراية ، الاطلاع) ، الإيمان (الثقة) . ويعرف ابن منظور لفظ القراءة في المعجم لسان العرب : «الْقَرَأُ ، و القراءة ، و القرآن . و ربما قالوا : اقْتَرَأَ اقْتِرَاءً»⁽¹⁾ أي فتح و نصر كل شيء جمعته فقد تم قراءته . أما مفهومها في التقليد الأدبي المعاصر مفهوم جامع لكل الأنشطة الإبداعية و الفكرية التي تثمرها النصوص الأدبية و في وقت نفسه نارس عليها قراءة ما، «فالقراءة تُمارَسُ على كل ما هو إبداعٌ و تتمحُّصُ لكل ما هو فنٌّ جميل»⁽²⁾ .

لقد اصطلح الحداثيون مصطلح " القراءة " بمفهوم التحليل و يحيل تحيل النص الأدبي على مفهوم القراءة و تحيل القراء على مفهوم التأويل ، و التأويل يحيل على مفهوم التعليق و التعليق يحيل على مفهوم النقد ، و نقد يحيل على اصدار حكم ما و على قيمة معرفية أو ايديولوجية أو جمالية⁽³⁾ . و من هنا تطرح التغيرات الجذرية في الأدب بشكل بارز في قضية تعدد التأويلات و هذا يشير في الأخير إلى قضية ألا و هي "دور و أهمية القارئ في قراءة القراءة" .

ينبعث فعل قراءة النص الأدبي من طرف القراءة التي هي إنطاق الذات بما هو مغيب في مجاهلها و استخراج ما في بواطنها و تسطيره للعام و الخاص من الناس ، بهدف الكشف عما في الضمير من عواطف / الخواج / الانفعالات الطافحة / الفائضة ، بوصفها كتابة تنسج / تحبك / تغتزل حول كتابة أخرا غائبة و إن كانت حاضرة . ثم إن القراءة في حد ذاتها تناص مع نص آخر كان سالفاً قراءةً لخاطر و ترجمان لموهبة . و بالتالي تنطلق قراءة النص الأدبي من القراءة التي تبحث عن خبايا النص الأدبي و استطلاع أساريه جمالية و ترصد فنياته ، و في الأخير تشكيل دلالاته . فالقراءة تنسج في مكونات النص و تنسج سماته اللفظية ؛ إذ القراءة الأدبية عالم يجسد عوالم الباحثون و جنس يمثل أنواعاً داخلية تمتد في أكثر من مدى ؛ فمن جهة تكون القراءة ذات نظرة نحوية و من جهة أخرى تكون القراءة الأدبية شبيهة بالإبداع . إذن القراءة لا تخرج عن كينونتها شرحاً ، تعليقاً ، تفسيراً ، تأويلاً ، تحليلاً ، تشريحاً ، نقد نقد أو نقداً . و ما نستخلصه ، إذن أن هذه المظاهر بتنوعها و تعددها تجعل من القراءة نشاط ذهني و ابداعي متعدد أشكال ، ففعل القراءة يتمحّص لنصّ الراق/المرموق .

تكون المقاصد و أهداف المتوخاة من قراءة النص الأدبي في النشاط الذهني استهلاكية / استطلاعية / استكشافية أو " فضولية " قائمة على الملاحظة و المساءلة و هذا يتبع بالقياس إلى القراءة الأولية التي ينهض بها القارئ المحترف ، فالقراءة المثمرة / المعبرة / المنتجة هي التي تسجل الملاحظات المتميزة و المثيرة للمقروء ، للوصول إلى قراءة أرقى بالقراءة المنهجية الجيدة . لذلك تشتمل القراءة على إعادة انتاج المقروء و التي تتصف بأكثر مظاهر التناسق مشروعياً؛ و القراءة التي لا توحى بقراءة أخرا تعد قراءة ميتة ، و «ذلك بأخذ القراءة التي تجعل المكتوب مقروء سوياً كتابة جديدة تقرأ على طلل هذا المقروء»⁽⁴⁾ .

مفهوم قراءة القراءة (نقد النقد):

تنضوي القراءة تحت الشكل الذهني الإبداعي بحكم الماهية و الوظيفة ، لذلك يعد مفهوم قراءة القراءة من مفاهيم الجديدة التي تنتمي إلى اللغة الجديدة ، و تعرف باللغة الفرنسية Méta lecture و بالإنجليزية Meta reading و معنى ذلك فهي انطاق القراءة الأولى التي مورست على النص الأدبي .

تدل قراءة القراءة على وجود قراءة تحبك من حول قراءة أخرى سبقتها ، تصنفها ، تدرسها ، تبلورها و تثبت و ترسخ فيها روحا جديدة و بالتالي تولد نصاً آخر منتجاً و مثمراً . لذلك تعد ممارسة قراءة ما أشد تعقيدا من ممارسة القراءة ، و تطلب من ممارسيها أن يكون ذا معرفة أوسع و أعمق و أغنى من القارئ الذي يقرؤه .

فالقارئ هو الذي يؤصل مرجعيات النص الأدبي و يكشف عن خلفياته المعرفية لإبراز جمالياته الخفية بين السمات اللفظية البعيدة و القريبة و الدلالات الواضحة و المخبأة، أي تحليل نص أدبي بالكشف عما في طياته من فنيات و تعرية ما فيه من ملامح المتعة و عناصر الجمال . و هكذا تشتمل قراءة القراءة على ابداع و جمال فني مع اصدار الأحكام الاستدلالية التي ترافق النقد و وظيفته . و من هنا يسعى المحلل الأدبي / قارئ متذوق / قارئ محترفة في قراءته إلى شروط ابداعية تنسج من حول المقروء ، فهي قراءة تسجل و تترجم إلى نص جديد من حول النص الطريح للتحليل . و بهذا الشكل تتحقق قراءة القراءة من هذا الشرط التخصصي .

يتوقف المحلل الأدبي في قراءة النص الأدبي لدى كل لفظ / موضوع عن طريق فك رموزه و حل ألغازه و قراءة شفراته أثناء الممارسة برؤية جمالية ذات قيمة فنية لتبليغ النص المقروء . لأن القارئ العادي/ مبدع أول يواجه النص على نحو مباشر ، أما قارئ القارئ/ مبدع محلل يواجه النص بحرية خيالية مطلقة من خلال اللغة و رموزها و عطاءاتها الدلالية ، «فاللغة هي القاسم المشترك بين الكتابة الإبداعية الخالصة و الكتابة التحليلية المنسوجة»⁽⁵⁾ . و من هنا يجب أن يكون النص الأدبي موضوعاً لكل تحليل أدبي ، لأن الأدبية إذ وفرت في نص أدبي ما أصبح أدبياً بغض النظر عن جنسه أصلاً . و هكذا تكون قراءة القراءة في الفكر العربي المعاصر لا تخرج عن كونها : - رضا و تعاطف - تقرب و تملق .

تومئ القراءة الأدبية في التراث العربي على تأويل معاني الألفاظ و الاجتهاد في حصر دلالتها المعجمية و على الحدود الدلالية ، و كذلك تقوم على القراءة التي تنتهز على الذوق الخالص و المقدرة الذاتية . فلو لا الاختلاف في الذوق و التنوع في الثقافة و التفاوت في العلم لما فكر الآخر في أن يقرأ ما كان يقرأ الأول من أجل التفوق عليه .

أما القراءة الأدبية عند الغربيين ترتكز على التفكير إلى أقصى حدوده الممكنة، فالقراءة عند 'غريماس Greimas' تقوم على " الميكانيكية اللسانية"⁽⁶⁾ و عند 'بارت Barthes'⁽⁷⁾ ترتكز على الإبداعية و اللذة بكل ما يحمله اللفظ من معاني التلذذ ، أما ' ميشال فوكو Michel Foucault'⁽⁸⁾ هي قراءة فراغ تنطلق من دراسة الجنون و تنتهي إلى أركولوجية . نستنتج، إذاً؛ أن القراءة عند الغربيين تشبه تأمل لوحة زيتية رسمتها ريشة فنان عبقرى ذو متخيلة نصية توحى إلينا بمعانٍ جديدة . و إجمالاً لا يمكن فصل القراءة عن الكتابة و لا التلقي عن الباث ؛ فالكتابة قراءة و القراءة كتابة و تكون علاقة القراءة بالكتابة هي علاقة الذات بالذات . أي لا يمكن فصل أحد الطرفين عن آخر ، فالعلاقة بينهما علاقة ترابط و تكافؤ و تكامل ، فلا يتحقق وجود الأول بدون الثاني و العكس صحيح .

تصنف نظرية القراءة إلى ثلاثة حقول يصعب في غالب الأحيان التمييز بينها لأنها متداخلة ؛ و هي كالآتي :

1- النص نفسه بوصفه مجموعة من الدوال التي ينبغي تأويلها .

2- نص القارئ أو القارئ بوصفه نصاً .

3- تلاقي النص و القارئ أي عمل الدلالة .

و من هنا ينظر في نظرية القراءة المعاصرة إلى المعنى على أنه نتيجة اللقاء بين نصين : النص المقروء و نص القارئ .

I. النص المقروء Le texte à lire :

أطنت النظريات المعاصرة في الحديث عن النص المقروء بجعل النص لا وجود له إلا بوجود القراءة ، و التأويل يبدأ منذ أن يستحوذ القارئ على النص ؛ لأن الملاحظات الموجودة في النص لا تتحقق إلا بفضل التأويلات / التأويل . و يتمحور حول كل نص قطبين هما :

أ / قطب مواضع اليقين Les lieux de certitude :

يقصد بمواضع اليقين الأمكنة الموضح في النص و التي ننطلق منها لبناء التأويل ، فهي تسمح بتطبيق ذلك التأويل على النص . و تصنف مواضع اليقين التي تختلف باختلاف العصور الأدبية و سياقات التلقي⁽⁹⁾ و فق بعض النقاط التالية :

1 - عنوان : و هي العناوين الفرعية و عناوين فصول العمل الأدبي .. و التي تكون متعددة الدلالات أو المعاني و بالتالي تشكل " منطلقات قراءة " ضرورية .

2 - الإشارات إلى الجنس الأدبي و إلى أجناس الفرعية : التي تستدعي قدرة القارئ اللغوية و البلاغية و الثقافية في تحديد أفق التوقع الذي يمكن أن يتم تأكيده أو نفيه .

3 - متتاليات الوحدات السيميائية التي يمكن فهمها من خلال : تشابه ، التكرار ، تقابل

4 - الوحدات النصية الأكثر اتساعاً .

ب / قطب مواضع الشك Les lieux d'in certitude :

و مقصود بمواضع الشك هو الانطلاق من الغموض الخفيف إلى فقرات أكثر استغلاقاً التي توقع القارئ في موقف حرج (نظرية الكلاسيكية) أو تمنحه حريته كلها بوصفه قارئاً (نظرية معاصرة) . هذا ما يجعل القارئ مجبراً على التداخل و اقتراح الفرضيات ، حيث يتيح ظهور مكان النص المتعدد - تقديم و عرض عدد من التأويلات - . و لمواضع الشك تصنيفات متنوعة⁽¹⁰⁾ و هي :

1 - تصنيف نقاط غامضة .

2 - تصنيف رموز مبهم .

3 - تصنيف تداعيات مُلغزة .

4 - تصنيف تراكيب ملتبسة .

5 - تصنيف إلماعات ضمنية .

6 - تصنيف الحذف و انعدام التابع .

7 - تصنيف الانقطاعات و المفارقات و التعارضات .

لذلك أقامت " مدرسة كونستانس " جدلاً بين اليقين و الشك محاور كبرى لجمالية التلقي .

II. نص القارئ :

يكون القارئ مدفوعاً إلى استخدام مجموعة غير محدودة من الرموز الثقافية التي تشكل جزءاً كامناً من " نصّ القارئ " سواءً دمجها القارئ في ذاكرته أو بتجربته أو معجم من معاجم أو موسوعات . و يشتمل نص القارئ المثالي على :

1 - رمز⁽¹¹⁾ الثقافي المتسع : و يتمثل في رموز و صور و سرديات أسطورية و إلماعات أدبية .

2 - معرفة المتطلبات و البرامج القصصية الخاصة بالأنواع الأدبية الكلاسيكية و بالأنواع الفرعية المعاصرة أو الشعبية .

3 - البنى النصية المجردة كالترسيمات البرهانية و السيناريوهات⁽¹²⁾ .

4 - امتلاك امكانيات طرق المنطق المختلفة من أجل اتمام القراءة ؛ و هذه الطرقي :

أ. المنطق الفاصل : الملاحم / الحكايات .

ب. المنطق اللافاصل : يلائم الرواية .

ت. المنطق الرابط : الاتحاد المنسجم بين الأضداد .

ث. المنطق الفارق : موجود في الشعر المعاصر .

ج. المنطق الذي يقبل التناقض : الأعمال مستوحاة من القصائد و السرديات السريالية .

إضافة إلى النص المقروء و النص القارئ ؛ هناك القارئ الضمني / النموذجي الذي يكاد يكون أسطورة لأنه محط آمال لأي كاتب ، و يعرفه " أرست جنجر E . Jünger " قائلاً « إذا كان الجمهور المحترم عاجزاً عن فهم هذه الملاحظة أو تلك ، فليس لأنه يجهل : التوراة و اللغات القديمة و التاريخ و علم الأساطير و الآداب الكلاسيكية و العالمية فحسب بل لأنه لا يمتلك أدوات اللغة أيضاً : القواعد و العروض و علم الاشتقاق و سحر الأصوات »⁽¹³⁾ . و يحيل هذا القول أن القارئ الضمني يتحلى بهذه الأوصاف حتى يتمكن من معرفة الظاهر و الباطن .

مراحل القراءة :

تشمل عملية القراءة تخطيطياً على مراحل التالية :

1_ البحث عن فرضية سيميائية شاملة و اختبارها (البنية السيميائية الكبرى في اللسانيات النصية) .

2 _ يجب أن يترافق اختبار الأساسي السيميائي باختيار المنطق الذي يجمع بين حدود النموذج .

3 _ يكون للقراءة انطلاقا من اختيار التشاكل و المنطق اللذين يحددان درجة الانسجام وفق عمليات متنوعة ؛ و هي :

أ. التكثيف : وهو عمل التلخيص مواضع النص .

ب. الترجمة : بإزالة التباسات و توضيح التلميحات .

ت. الإضافة : على القراءة أن تضيف العلاقات المنطقية الغائبة في النصوص الأدبية و ملأ الخانات الفارغة التي يقوم سيناريو بإظهارها .

4_ الحذف : يخفض القارئ بعض العناصر إذ يجعلها مجرد استطرادات .

أبعاد القراءة :

للقراءة بعدان هما :

1/ البعد الحضاري للقراءة : يكتشف هذا البعد بالنظر في القرآن الكريم والفلسفة الإغريقية و الثقافة الدينية والإنسانية و كذلك تاريخ الرومان و اليونان و تاريخ العرب . و يتميز هذا البعد للقراءة بالعقل الوازع و العقل المدرك و العقل الحكيم و العقل الرشيد - الكمال الإنساني - و وظيفة العقل الرشيد تمتاز فوق كل الوظائف ، لاقتضاها مواقف " القراءة " للموجودات و معانيها و إشارتها و دلالتها و رموزها و هيئاتها .

2/ البعد الفعل المختص للقراءة : يقصد بذلك أنها :

1. تقوم على تفكيك المكتوب .

2. الوصول إلى اللذة الفنية .

3. فتح النص على التعدد و العطاء .

و هكذا تعد القراءة الإنجاز الفعلي للنص ؛ إذ القارئ هو الموقع الحقيقي على شهادة للنص لأنه يضفي السمة الإبداعية أو قد يقرّ له بها ، و يجمل عبد ملك مرتاض قائلا : « إن فعل القراءة عملية معقدة تغدو فيها إثارة العلامة المكتوبة من دون جوانب محددة سلفاً ، بل بحسب القارئ و زمن القراءة و ظروفها و تثبت النظر على المكتوب و على الكفاية اللغوية الحاضرة»⁽¹⁴⁾ إذ يتم فعل القراءة على تفكيك المكتوب من أجل الوصول إلى اللذة الفنية المراد تحقيقها .

و يتميز زمن فعل القراءة بزمانين :

أ / زمن النص : يحدد فيه القيم التعبيرية و الأسلوبية التي كانت سائدة في لحظة نشوئه و مدى تأثيرها في ذلك الآن و في ذاك المحيط .

ب / زمن القراءة : يراع فيها تحولات القيم الشعورية و التعبيرية و الأسلوبية و الظرف المحيط .

تكتمل لذة فعل القراءة و متعتها في الصراع بين إرادتين ؛ الأولى تظهر في فعل الكتابة و قصديات متعددة التي يثبتها الكاتب في جدله بين الدوال و المدلول ، أما الثانية تظهر من خلال رغبات القارئ - قواعد و دلالات - و في غيابها تكون القراءة مملة . و يوضح حبيب مونسي لذة فعل القراءة قائلاً : « أن النصّ الجديد هو النص الذي يكفل لأكثر عدد ممكن من قراءة المزاولة للعبة الصراع ، و الكتاب المجيدون هم الذين تستدعي كتاباتهم قراءات لنفس القارئ لهذا الصراع المستمر»⁽¹⁵⁾ . و فعل القراءة يركز على اللذة و المتعة ؛ و يمكن إظهار أن اللذة مرتبطة بالنص التقليدي الذي يقبل النقد أما المتعة مرتبطة بالنص الحديث / الحدائي الذي لا يقبل النقد ، أي تميز بين الأثر الأدبي و النص .

سوسيولوجيا القراءة :

تعدد جمهور القراء للقراءة وبالتالي توجد ثلاثة أصناف للقراءة هي :

الصنف الأول : الجمهور المخاطب Interlocuteur : و يركز على قصدية الإقناع الموجود في عملية الخلق الأدبي و هو محيط اهتمام مدرسة جمالية التلقي - المثالي متخيلاً - .

الصنف الثاني : الجمهور الوسط Milieu : يركز على انتقال من وعي قائم إلى وعي ممكن ، و تكتمل العلاقة في الوحدات المرتبطة المتلاحمة ذات أصول ثابتة هي :

أ / وحدة اللغة (اللسان القوم) .

ب / وحدة الثقافة (تصوير طبيعة كل فرد داخل منظومة اجتماعية) .

ج / وحدة البدائية (مجموع الأفكار و المعتقدات و الأحكام و القيم و المسلمات المتعارف عليها) .

الصنف الثالث الجمهور الواسع Le grand public : يتجاوز الحدود الجغرافية و الزمنية بفعل الترجمة و الانتشار أنواع القراءة :

لقد ميز " روبرت اسكاربيت "⁽¹⁶⁾ بين نوعين من قراءة و هما : القراءة العارفة و القراءة الذوقية .

1- القراءة العارفة : تنطلق من النصّ المقروء للبحث عن خباياه محللة أدواته و مرجعياته التي تضع قيمته الجمالية للوصول إلى لذة النصّ و متعته في آن واحد .

2- القراءة الذوقية (استهلاكية) : هي مقياس تجاري و ذوق نسبي تحكمها جملة من معطيات التي تصنعها الدعاية و الشائعة ، فهي قراءة استهلاكية تلتفت إلى الكتب المهنية و الوظيفية .

و هناك أنواع أخرى هي : القراءة الإسقاطية ، القراءة الشارحة أو التعليقية ، القراءة الشاعرية ، القراءة التأويلية ، القراءة الجمالية ، القراءة الاسترجاعية ، القراءة الناقدية ، القراءة الحدسية .
أنماط القرائية :

حدد حبيب مونسى أنماط القراءة إلى ثلاثة أنواع / أنماط:

- 1) القراءة الظاهرية : تتوقف على ظاهر النص و لا تتعداه و تقتنع بما يعرضه سطح النص دون التحليل و النقد (لا يستحسن و لا يستهجن) .
 - 2) القراءة المتماهية المتعاطفة : هي القراءة متذوقة تنجح إلى سلوك الشخصيات و الأحداث ، تتسم بالإيجابية من منظور خاص و تركز على الفعل الاجتماعي و الجمالية الفنية.
 - 3) القراءة تحليلية / التركيبية : يقوم التحليل على تفكيك أقسام النصّ و كشف علاقاته المتشعبة و بيان علله و أسبابه لظهور حقيقة الأفعال و الأحداث ، لأن عملية التركيب هي إعادة بناء جديد للنص المقروء وفق مقاييس المحلل و معطياته الفنية و القيمة ، فالنص الجديد هو " نصّ القارئ " لا نص الكتابة .
- و جامع القول ؛ يكشف تحليل القراءة عنفاً حقيقياً يمارس على النص لكي يتم إخضاعه لانسجام عقلائي ، مما يؤدي إلى تحديد القراءة تحديداً جيداً ذلك لأن لغة النص الأدبي لغة رمزية و متعددة و أكثر تحراً و مرونة و بالتالي إن حاجة القارئ إلى الفهم تجعله يقوم بترجمة حقيقية محاولاً جذب النص إلى عالمه و إدراجه داخل أيديولوجيته ، فالنص يكون دائماً في مكان آخر و تكون كل قراءة مصحوبة بشعور عميق من عدم الرضى .

الهوامش

- 1 - ابن منظور ، لسان العرب ، تحقيق : أحمد حيدر - عبد المنعم خليل إبراهيم ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، مادة قرأ.
- 2 - ينظر عبد الملك مرتاض ، نظرية القراءة ، دار الغرب للنشر و التوزيع ، وهران ، 2003 ص 15 .
- 3 - المرجع نفسه ، عبد ملك مرتاض ، ص 19 .
- 4 - المرجع نفسه ، عبد ملك مرتاض ، ص 30 .
- 5 * الإبداعية هي الكتابة سطحية من الوجهة السيميائية / تناص عائم ، أما الكتابة الابتداعية هي التحليل الأدبي / الكتابة التحليلية (الدراسة العميقة) .
- 6 - نقلا عن عبد الملك مرتاض ، نظرية القراءة ، ص 86 .
- 7 - عبد الملك مرتاض ، نظرية القراءة ، ص 86 .
- 8 - عبد الملك مرتاض ، نظرية القراءة ، ص 86 .
- 9 - دراسات أدبية ، آفاق تناصية-المفهوم و المنظور - ، ترجمة و تقديم : محمد خير البقاعي ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1998 ، ص 161 - 162 .
- 10 - المرجع نفسه ، ص 163 / 164 .
- 11 - رولان بارت ، النقد و الحقيقة ، ترجمة : الخطيب ، الشركة العربية للناشرين ، الدار البيضاء ، 1985 ، ص 48 / 51 .
- 12 * - هذه البنى النصية تطرق إلى دراستها أوتان Otten في كتابه: حول دور السيناريو في القراءة ، 1922 ص 44 / 46 .
- 13 - E . Jünger .l'auteur et l'écriture / bourgeois / 1982 / p 34 .
- 14 - عبد الملك مرتاض : أ - ي دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلا لحمد العيد آل الخليفة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1992 ص 14 .
- 15 - حبيب مونسي ، نظريات القراءة في النقد المعاصر ، منشورات دار الأديب ، وهران ، 2007 ، ص 29 .
- 16 - ينظر ، حبيب مونسي ، نظريات القراءة في النقد المعاصر ص 62 .
- 17 - ينظر ، حبيب مونسي ، نظريات القراءة في النقد المعاصر ، ص 64 .